ISSN:2602-8018

الإشارات الأدبية والثقافية في موسوعة التاريخ الشامل للمدينة المنورة

للدكتور عبد الباسط بدر

Literary and Cultural References in the Encyclopedia of Comprehensive History For Medina, by Dr. Abdul Basit Badr

د. مصطفى عطية جمعة

أستاذ مشارك الأدب العربي والنقد

محاضر بكلية التربية الأساسية، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، الكويت

mostafa_ateia123@yahoo.com

mostafaateia@gmail.com

0096597933405

ملخص بحث باللغة الإنجليزية:

Literary and Cultural References in the Encyclopedia of Comprehensive History For Medina, by Dr. Abdul Basit Badr

The aim of this research is to study the comprehensive history encyclopedia of Medina from a literary and cultural perspective, with the aim of identifying the dimensions of these signs culturally and culturally, as well as looking at the most prominent features of the historical approach in this encyclopedia, as a framework for understanding the civilizational history of Medina, hoping to focus the light on the effort made in This encyclopedia, and to consider what can be added at the level of historical studies of Medina.

key words:
Encyclopedia of Comprehensive History of Medina, Literary and Cultural References, Historical Approach, Civilized History.

ملخص البحث

الإشارات الأدبية والثقافية في موسوعة التاريخ الشامل

للمدينة المنورة، للدكتور عبد الباسط بدر

المستهدف في هذا البحث دراسة موسوعة التاريخ الشامل للمدينة المنورة من المنظور الأدبي والثقافي، بهدف الوقوف على أبعاد هذه الإشارات ثقافيا وحضاريا، بجانب النظر إلى أبرز ملامح المنهج التاريخي في هذه الموسوعة، بوصفه إطارا لفهم التاريخ الحضاري للمدينة المنورة، آملين تركيز الضوء على الجهد المبذول في هذه الموسوعة، والنظر فيما يمكن أن يضاف على صعيد الدراسات التاريخية للمدينة المنورة.

الكلمات المفتاحية:
موسوعة التاريخ الشامل للمدينة المنورة، الإشارات الأدبية والثقافية، المنهج التاريخي، التاريخ الحضاري.

مقدمة:

إن من أبرز الجهود العلمية للدكتور عبد الباسط بدر (1944- 2020)[1]، رحمه الله تعالى، تلك الموسوعة التي عكف عليها مدةَ خمس سنوات، لتثمر في نهايتها عن مجلدات ثلاثة؛ يقارب مجموع صفحاتها ألف وخمسمئة صفحة، وقد صدرت الطبعة الأولى لها في المدينة المنورة في العام 1414هـ، الموافق 1993م.

جاءت الموسوعة شاملةً لتاريخ المدينة المنورة، حيث أبحر المؤلف في أعماق التاريخ، متتبعا بداية نشأة يثرب، وأسباب تسميتها بذلك، ثم أبرز من سكنها أو هاجر إليها، ومنهم العماليق، والكلدانيون والرومان واليهود، ثم هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وصحابته الكرام (عليهم الرضوان) من مكة إلى يثرب، حيث أطلق عليها الرسول اسم "المدينة المنورة"، وبنى فيها مسجده،

[1] وُلد د.عبد الباسط عبد الرزق بدر بمدينة الباب شرقي محافظة حلب في سوريا عام 1364هـ/ الموافق 1944م، وقد نشأ في أسرة عُرِفَتْ بالتدين والاهتمام بالعلوم الشرعية، درس في دار المعلمين، وتخرج عام 1963م ليبدأ مسيرة الحياة العملية المبكرة معلماً في قرى محافظة حلب، وفي الوقت نفسه طالباً منتسباً في جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية، تخرج في كلية الآداب في جامعة دمشق عام 1967م، حصل على الماجستير من جامعة القاهرة سنة 1973م، وكان موضوع الرسالة "شعر بدوي الجبل دراسة في الفن والموضوع"، ثم حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من جامعة عين شمس في مصر عام 1978م، وكان موضوع الرسالة "قضايا الشعر الجديد في النقد الأدبي المعاصر". وقد عمل لسنوات طويلة في جامعة المدينة المنورة، وفي جامعات سعودية عديدة، وكُلّفَ بإدارة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة عام 1417هـ، وبقي على رأس عمله فترة طويلة من الزمان. أصدر كتبا عديدة، أهمها: مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، ومذاهب الأدب العربي رؤية إسلامية، وقضايا أدبية، وقضايا نقدية، ونشر بحوثا عديدة في المؤتمرات والمجلات العلمية المحكمة، بجانب عضويته في رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض، حيث شغل منصب نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ورئيس مكتب البلاد العربية فيها.

وأسس دولة الإسلام الوليدة بين جنباتها، وتشرفت المدينة باحتضانها قبره الشريف (عليه الصلاة والسلام).

وسرد المؤلف بشكل مفصل مختلف الحقب الزمنية، وأبرز الأحداث والشخصيات والوقائع التي مرّت على المدينة المنورة، منذ القرن الأول الهجري، وإلى القرن الرابع عشر الهجري، مرورا بعهد الخلفاء الراشدين، ثم الأمويين، ثم العصر العباسي الأول والثاني، ثم عصر الدول والإمارات التي سعت إلى بسط سيطرتها على الحجاز، مثل الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية والمماليك، ثم الدولة العثمانية، حيث الحكم الهامشي، انتهاء بالعصر الحديث، وحكم أسرة آل سعود، مع بسط القول في التغييرات العمرانية التي شهدها الحرم النبوي الشريف، وأيضا المعالم الكبرى التي ازدانت بها المدينة، وجعلت لها مكانة سامقة بين مدن العالم الإسلامي.

وإذا كنا نروم في هذه الدراسة دراسة البعد الأدبي والثقافي فيها، فإننا لا يمكن فهم هذا البعد إلا باستعراض مجمل لمنهج الموسوعة التاريخي، وكيف أنها توفر للقارئ العام- وأيضا لقارئ المتخصص- الفرصة لفهم تاريخ المدينة المنورة، في حقب التاريخ المتتابعة عليها، وكيف كانت ساحة لأحداث سياسية، وشخصيات قيادية، فلا يمكن فصل البعد الأدبي —وإن كان قليل الورود في الموسوعة- عن مجريات التاريخ، وحقبه الزمنية. ولذا، فإننا سنشير لمامًا إلى أبرز ملامح المنهج التاريخي في هذه الموسوعة، بوصفها إطارا لفهم الإشارات الأدبية والثقافية والحضارية، في تاريخ المدينة المنورة.

التاريخ والتأريخ والمنهج في الموسوعة:

لم تأت هذه الموسوعة من فراغ، بل هي حصيلة سنوات جهد ممتدة، عندما كُلِّف المؤلف بإدارة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة عام 1417هـ، حيث بقي على رأس عمله فترة طويلة من الزمان، فأتيحت له الفرصة للاطلاع عن كثب على الدراسات والمراجع والبحوث المعنية بتاريخ المدينة المنورة. وقد أشار عبد العزيز عبد الرحمن الحصين (الأمين العام للمدينة المنورة)، في تقديمه للموسوعة؛ إلى أن الغاية كانت وضع كتاب مختصر عن تاريخ المدينة المنورة، معللا ذلك بأنه على كثرة الكتب والبحوث عن المدينة المنورة؛ إلا أنه لا يوجد كتاب شامل عن تاريخ هذه المدينة

الطاهرة العريقة، فاضطلع المؤلف بتحقيق هذا الهدف، ولكن العمل تحول إلى موسوعة كبيرة[2]؛ تبحر في أعماق الزمان لأكثر من أربعة عشر قرنا، ترصد مكانة المدينة على امتداد التاريخ، ودورها في صناعة الوقائع التاريخية، كذلك ما أصابها من أحداث وظروف منها ما هو شديد الألم، ومنها ما هو موضع مسرة وفخر.

ومن خلال قراءتنا للموسوعة، يتضح جليا أن الهدف منها تقديم ما يسمى بتاريخ المدينة المنورة، وقد جاء نهجها متوافقا مع المفهوم المعتمد للتاريخ والذي يشمل ذكر الوقائع، ولا سيما ما يتعلق بها من القبائل والأمم، مع تعيين أوقاتها، وبيان أسبابها ومسبباتها، أي وصف الوقائع، وتبيان الأزمان التي حدثت فيها تلك الوقائع، والعوامل التي أدت لوقوعها. وهو اتجاه مؤرخي العرب القدامى حيث حرصوا على جمع الأخبار، وتكديسها، وذكر الوقائع السياسية وسرد الأخبار، مع تفاوت فيما بينهم في النقد والتحميص[3]. فقد غاص مؤلف الموسوعة في بطون المراجع والمصادر التاريخية، تنقيبًا وبحثًا عن مختلف المعلومات والأخبار المتعلقة بتاريخ المدينة المنورة، ومن ثم عمد إلى سردها وفق التتابع الزمني للأحداث، متخذًا من المدينة المنورة أرضية ثابتة؛ تجري على ثراها الأحداث التاريخية المتغيرة، ويخطو على ثراها صنّاع التاريخ، فالمدينة بوصفها مكانا هي المحور الأساسي في هذه الموسوعة، نظرا لمكانتها الدينية العريقة التي خلّدتها في التاريخ، حينما اتخذها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مهجرا له، ثم بنى بها مسجده، ثم كان قبره فيها. وظلت المدينة هي عاصمة دولة الإسلام إبّان عهد الرسول ثم عهد الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، قبل انتقال العاصمة إلى الكوفة على يد علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه).

وكما يشير د. محمد السيد الوكيل في المقدمة الثانية للموسوعة، بأن منهج المؤرخين العرب القدامى اكتفى غالبا بوصف الأحداث، أي سرد ظواهر الأمور فقط، ويعرضون عما خفي منها، فيروون الحدث كما عاصروه بأنفسهم، أو نقلا عن الثقاة، ويدعون البحث والتحليل لمن يقدرون

[2] د. عبد الباسط بدر، موسوعة التاريخ الشامل للمدينة المنورة، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط1، 1414هـ، 1993م،الجزء الأول، ص1.

[3] حيدر زكي عبد الكريم، كتابة التاريخ، دار نينوى للنشر والدراسات، دمشق، 2011، ص30، 31.

عليه مما يأتون بعده. وقليل من المؤرخين من أخذوا أنفسهم بأسلوب التحليل والاستنباط. وعلى كل حال، فإن مهمة المؤرخ تتمثل في بذل الجهد لربط الأحداث بعضها ببعض، وإبرازها في سلسلة متناسقة، حتى تتم الصورة وتتضح المعالم، وهذا يساعد الدارس على استخلاص العبر وهو أهم غايات التاريخ، مع ربط التاريخ السياسي بالحضاري[4].

ونرى أن د. عبد الباسط بدر في هذه الموسوعة قد سار على نهج الأقدمين، من حيث إيراد الأحداث مفصلة، وعرض الشخصيات موضحَّة، مع التشدد في تمحيص الروايات، فما أكثر الدسّ في أحداث التاريخ، وكذلك تفعيل الاستنباط والتحليل بقدر المستطاع، وعدم قبول الروايات المكذوبة المشوهة للحقائق، خاصة ما يتصل بالصحابة، وأهل بيت النبي، وكذلك خلفاء بني أمية. وخير مثال على ذلك ما أورده المؤلف في أحداث الفتنة الكبرى، ومقتل عثمان (رضي الله عنه)[5]، خاصة أن المدينة المنورة كانت محورا لأحداث وفتن كثيرة بعد ذلك، وسعى كل الخلفاء الذين حكموا المسلمين إلى ضمان سيطرتهم عليها، مثلما سعى أيضا المعارضون والمتمردون وأيضا الأعراب إلى الهجوم عليها، ونهب خيراتها، بل كانت هناك محاولات من الصليبيين بقيادة أرناط، حيث فكر في غزو الحجاز، والسيطرة على مكة المكرمة والمدينة المنورة، لطعن المسلمين في أعز مقدساتهم. وقد قتله صلاح الدين الأيوبي بيده لاحقا، عندما سقط أرناط أسيرا في موقعة حطين[6].

فيمكن القول إن منهج الموسوعة يلتقي مع مؤلفات التواريخ المحلية، التي ظهرت عن أقاليم كثيرة مثل مصر والشام واليمن، وقد كونت نوعا من المدارس التاريخية الإقليمية، في هذه البقاع، وتفرعت بعد ذلك لتصبح تواريخ للمدن والأسر والشخصيات. وهو يعكس شعور هذه المدن أو

[4] د. محمد السيد الوكيل، في تقديمه لموسوعة التاريخ الشامل للمدينة المنورة، الجزء الأول، ص4، 5. هذا، وسنشير في الهامش بعد ذلك إلى لفظة الموسوعة، مع ذكر الجزء والصفحة.

[5] الموسوعة، ج1، ص296- 315.

[6] الموسوعة، ج2، ص184- 186.

الأقاليم بالتفرد في المصير، والرغبة في تبيان الإسهام الذاتي لها، ضمن التاريخ الإسلامي العام([7]). ولاشك أن المدينة المنورة، لها الكثير من الإسهام التاريخي، الذي يجعلها مدينة متفردة في شخصيتها التاريخية، وأيضا في مجمل أحداث التاريخ، وستبقى خالدة إلى الأبد.

البعد الأدبي والثقافي في الموسوعة:

لعل الملحوظة الأساسية في هذه الموسوعة تبدو في عناية المؤلف كثيرا بالتاريخ السياسي الإخباري، على حساب التاريخ الحضاري، فجعل همه الأساسي في استعراض أبرز الوقائع والأحداث السياسية والتاريخية التي أوردها المؤرخون المسلمون عن المدينة المنورة، وقلّت إلى حد الندرة إشاراته إلى التاريخ الحضاري والذي يركز بشكل خاص على التراكم الحضاري والثقافي والإبداعي، خاصة في الأقطار أو المدن التي لها مساهمتها بشكل خاص في الحضارة، وأن هناك وحدة عامة للتطور الثقافي في مجتمع ما[8]. ولاشك أن هذا ينطبق على المدينة المنورة، التي كانت مساهمتها الحضارية التي لا تقل بأي حال عن مساهمتها السياسية في مجمل التاريخ العام للحضارة الإسلامية. بل يمكن القول إن المدينة المنورة تشكلت فيها مدرسة علمية متكاملة العطاء والإبداع والإضافة في الحضارة الإسلامية، فظهرت فيها الحلقات العلمية، ونبغ فيها مئات العلماء، الذين ألّفوا في علوم القراءات والفقه وأصوله، والحديث والتفسير، ناهيك عن الأدب والشعر والخطابة والقصص، وعلوم اللغة من نحو وصرف وأيضا علوم التاريخ والمغازي، ووفد إليها آلاف من طلاب العلم من شتى أنحاء العالم الإسلامي، ينهلون ويتتلمذون على أيدي علمائها[9].

---

[7] د. شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1983، ج3، ص359.

[8] هاري إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: د. محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ج2، ص148، ص151.

[9] انظر تفصيلا: سعد بن موسى الموسى، تاريخ الحياة العلمية في المدينة المنورة خلال القرن الثاني الهجري، رسالة ماجستير، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، 1428هـ. وقد فصّل الباحث وأبان عن أبرز مساهمات علماء المدينة في مختلف العلوم والآداب.

ولذا نقول إننا في أشد الحاجة لدراسة التاريخ الحضاري للمدينة المنورة، وأيضا لبقية المدن الإسلامية الكبرى، جنبا إلى جنب مع التاريخ السياسي الإخباري، بل ربما يكون التاريخ الحضاري هو الأهم بالنسبة إلينا، في ضوء الهجمات المتتالية على الحضارة الإسلامية من قبل المستشرقين ومن تابعهم، الذين قدموا تاريخ الإسلام على أنه تاريخ قتل ودماء وصراعات وحروب، وتغافلوا عن عطاء المسلمين الحضاري.

وقد اقتصر الجانب الأدبي في هذه الموسوعة على مجرد إشارات أوردها المؤلف في سياق تأريخه السياسي الإخباري، وهي نثيرات وردت ضمن السرد التاريخي الإخباري، ولم تكن معبرة عن الروح الثقافية أو الإبداعية أو العلمية في أية حقبة من حقب تاريخ المدينة، سواء قبل الإسلام أم بعده، على الرغم من أن الشعر كان ديوان العرب في الجاهلية وبعد الإسلام، وفاضت قصائد الشعراء بالتغني بالمدينة، ومكانتها السامقة، بجانب مواكبة الشعر للأحداث السياسية المختلفة، وما أكثرها.

بل إن المصادر الأدبية والفنية جزء أساسي من مصادر التاريخ، ذلك أن منهجية التأريخ العلمية تقتضي أن يطلع المؤرخ على أبرز المصادر الأدبية في العصر أو المِصْر (القُطر) موضع الدراسة، ليتعرف على صورة الحدث التاريخي كما تجلت في الإبداعات المختلفة، ولأن الأدب والفنون هما أحد معايير قياس مدى التقدم والرقي الحضاري في الحقبة الزمنية المدروسة، ولأنهما أيضا يعبران عن المظهر الخارجي للمجتمع، وكذلك المزاج والذوق العام السائدين، فالهدف تصوير المجتمع أو الحقبة الزمنية من كافة جوانبها، ومن أجل إيضاح رؤية تاريخية مكتملة لدى القارئ[10].

وقد رأينا المؤرخين المسلمين القدامى يستشهدون بالشعر جنبًا إلى جنب مع ذكر مروياتهم الإخبارية، على قناعة منهم أن الشعر إن لم يكن مرآة للحدث التاريخي؛ فإنه سيكون شاهدا عليها، ونكتشف من خلاله البعد النفسي الفردي وموقف الشاعر من الحدث، والذي يعبر أيضا عن البعد النفسي الجمعي. وبالطبع فإن البعد الأدبي لا يقتصر على الشعر فقط، بل يشمل

[10] د. سيد أحمد علي الناصري، فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه، دار النهضة العربية للنشر، القاهرة، ط1، 1982، ص188، 189.

الخطب الملقاة، والكتب المرسلة، والحوارات البليغة التي زخرت بها كتب السرديات التاريخية، وقد أورد المؤلف بعضها، بجانب إشارات نادرة عن التطور الحضاري والعلمي للمدينة المنورة.

وسنستعرض ملامح من الجانبين: الأدبي والثقافي الموسوعة، فكلاهما وثيقا الصلة بالتاريخ الحضاري للمدينة المنورة، وكيف أن الأدب واكب الحياة، مثلما أن الثقافة راحت تنمو عاما بعد عام، حتى أصبحت المدينة المنورة منارة للعلم والأدب.

الشعر –في المدينة المنورة–مرآة وذاكرة:

وردت الاستشهادات الشعرية في الموسوعة –على قلّتها– بوصفها شاهدةً على أحداث ذات دلالات اجتماعية أو سياسية أو ثقافية، وهو ما يمكن رصده في نماذج عدة.

فنراها بداية مع سردية تنصيب الصنم مَنَاة ليكون إلها للأوس والخزرج في يثرب، بعدما استقر بهم المقام بها، وقيل قد تم تنصيبه بالقرب من يثرب، وكانوا يذهبون إليه، ويقدمون القرابين، ويحلقون رؤوسهم تحته، وذلك بعد عودتهم من الحج وفي هذا يقول أحد الشعراء على نحو ما يذكر الكلبي في كتابه الأصنام:

إني حلفتُ يمينَ صدق برةً بمناة عند محل آل الخزرج

وقد بلغ تعظيمهم لمناة، أنهم لا يولون ظهورهم إليها، وإنما ينحرفون يمنة أو يسرة حتى لا تكون خلفهم، ويغادروا موقعها، وفي ذلك يقول الشاعر الكميت:

وقد آلت قبائل لأتولى مناة ظهورها متحرفين[11]

ويتضح من خلال الاستشهاد السابق كيف أن الشاعر العربي في الجاهلية كان يعبر عن مشاعر قومه الدينية، وكيف يصف سلوكياتهم إزاء المقدسات. ولندرك أن أهل يثرب اتبعوا ما وجدوا عليه القبائل العربية من معتقدات الشرك والوثنية، وعظموا في الوقت نفسه شعائر الحج المتوارثة عن الديانة الحنفية، ولم يتقبلوا الديانة اليهودية، على الرغم من وجودهم في قرى محصنة حول يثرب، ولكنهم حبسوا أنفسهم، ومارسوا عباداتهم في معابدهم داخل آطامهم[12]، ولم يسعوا إلى نشر عقائدهم بين عرب يثرب.

[11] الموسوعة، ج1، ص87.

[12] الموسوعة، ج1، ص88.

الاستشهاد الشعري الثاني جاء رثاء من قبل أحد الشعراء للعبيليين، وهم أول من سكنوا يثرب، واحترفوا فيها الزراعة، وقد أورد الأبيات المسعودي صاحب مروج الذهب:

عين عودي على عبيل وهل يرجع ما فات فيضها بانسجام
عمّروا يثرب وليس فيها سفر ولا سـارح ولا ذو سـنام
غرسوا لينها ببحر معـين ثم حفّوا الفسيل بالآجـام

وقد وفد العبيليون من بلاد سومر في العراق، وقدموا إلى موضع يثرب، والذي هو واحة في الأساس، تمتلئ بالينابيع والمياه الجوفية، فأينما حفروا الآبار تفجرت بالماء العذب، ولذا قال عنها العرب أنها أشجر بلاد الحجاز. وقد حمل العبيليون خبراتهم في الزراعة، فعمدوا إلى تعمير يثرب واستزراعها، وملأوها بالبساتين والحقول[13].

تحمل الأبيات السابقة إخبارا بالتاريخ، بالإشارة إلى عبيليين بكونهم سببا للاقتصاد الزراعي الذي تميزت به يثرب، فالقبائل العربية التي عاشت في الحجاز كانت البداوة طبيعة لها، ولم تسعَ إلى التحضر بالاستقرار في القرى، وفلاحة الأرض، وهو ما تحقق على يد العبيليين الذين هاجروا من العراق لأسباب عدة، ووجدوا في أرض يثرب ملاذا وعيشا وبيئة زراعية لهم، وفي الأبيات إشارة إلى فضلهم في تعمير يثرب، والتي كانت أرضا مهجورة يوما، فغرسوا فيها اللِين (الأشجار) واستنبتوا الفسائل، وكذلك فعل اليهود الذي خبروا الزراعة، عندما هاجروا واستقروا في يثرب.

كما يرد الشعر مسجلا لموقف شجاع ذي دلالة ثقافية، حيث تحدى الشاعر المعروف عروة بن الورد ما روّجه يهود يثرب بين الأوس والخزرج من مقولات مفادها أن أي غريب عن يثرب إذا أراد دخولها فلابد أن يلجَ من "ثنية الوداع"، وعليه أن يعشّر أي ينهق مثل الحمار عشر مرات، فإذا دخلها من غيرها أصيب بمرض قاتل. وقد حاور عروةُ اليهودَ قائلا: يا معشر يهود، مالكم والتعشير! فقالوا: إنه لم يدخلها أحد من غير أهلها، فلم يعشّر بها إلا مات. ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا أصابه الهزال. فلم يبال بهم عروة، ودخلها على أعين الناس، وهم يترقبون أن تصيبه مصيبة، وأنشد يقول:

[13] الموسوعة، ج1، ص99.

لعمري لئن عشّرتُ من خشية الردى نهاق الحمير إنني لجزوع

وتبعه الناس بعد ذلك فيما فعل، وأبطلوا مقولة يهود[14].

والموقف دال على تخرصات اليهود وما أشاعوه من خرافات بين أهل يثرب، دون دليل ملموس، سواء من كتبهم الدينية أو من تجاربهم في الحياة، وللأسف فإن الناس صدقوهم، حتى جاء عروة بن الورد الذي أعمل عقله في هكذا أكذوبة، ومن ثم قرن الفعل بالقول، ووقف أهل يثرب يتأملون مشهد ولوجه، الذي خلّده ببيت شعري.

ويؤكد المؤلف أن اليثربيين عُرِفوا بالثقافة العربية والذوق الرفيع، ونقدهم الجمالي الصائب، وقد حضر النابغة الذبياني ذات مرة إليهم، وكان اليثربيون قد سمعوا قصيدة له فيها إقواء، فأرادوا تنبيه بطريقة غير مباشرة، فأمروا جارية عندهم أن تغني القصيدة، وتمدّ صوتها في المواضع التي بها إقواء، من مثل قوله:

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزودِ

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ

وقوله في القصيدة أيضا:

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقدُ

فتنبه النابغة للعيب، وعدّل أبياته ليتخلص من الإقواء، فعدل الشطر الأخير من البيت الثاني ليكون: وبذاك تنعاب الغراب الأسود. والشطر الأخير من البيت الثالث ليكون: عنم على أغصانه لم يعقدِ[15].

إنه موقف دال على ذائقة أهل يثرب الراقية، وكيف أنهم يمتازون بالبلاغة والفصاحة، وأيضا الرقة في توجيه النقد، فجاء عبر غناء ماتع، وإشارة خفية، أدركها النابغة، وهو من هو في الشعر والمكانة السامقة بين الناس، وقد وضعه ابن سلام الجمحي في الطبقة الأولى من الشعراء[16]،

[14] الموسوعة، ج1، ص111.

[15] الموسوعة، ج1، ص124.

[16] طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة، د ت، السفر الأول، ص53.

ومعروف عنه أن من كبار النقاد العرب في الجاهلية، حيث كانت تُضرَب له قبَّةٌ حمراءُ مِن جِلد في سوق عكاظ، حيث يقوم النابغةَ بالحُكمَ على الكثير من القصائد. وشهد له عدد من الشعراء، حيث قالوا عن شعره: كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتًا. كأن شعره كلام ليس فيه تكلّف[17]، ومع ذلك تقبل نقد أهل يثرب له، وعدّل قصيدته فور تنبيهه.

ويؤكد المؤلف عبد الباسط بدر أن الشعر كان ديوان المفاخرة لليثربيين، وسجلهم الذي حفظ أفكارهم ومآثرهم، وأبرز أحداثهم، ولم يدوّن إلا بعد قرن بعد الإسلام[18]، مما يدل على رسوخ العربية بلاغة وشعرا وإبداعا وتلَقّيًا لدى اليثربيين، وهو ما جعلهم يتذوقون القرآن الكريم وإعجازه البلاغي، وتعاطوا مع بلاغة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو ما ميّزهم عن أهل مكة الذين تعاملوا بفظاظة وتكبر وتعنت مع الرسول.

على صعيد آخر، فإن الشعراء كان لهم دور في تأجيج العداوة، والنيل من المسلمين، والدليل الذي أورده المؤلف هو الشاعر اليهودي كعب بن الأشرف، الذي كان له حصن مسمىً باسمه، وهو أحد رؤوس بني النضير، فلما هزِم كفار مكة في بدر، رثى قتلاهم بقصائد حارة، ثم ارتحل إلى مكة، ليحرّض زعماء قريش على الانتقام لقتلاهم. لو يورد المؤلف أشعارا له، فلا يستحق أن تستعاد أشعاره، حيث سعى إلى جمع كلمة اليهود، لمحاربة المسلمين، وراح يقول قصائد يستهزئ فيها بالمسلمين، ويتغزل بزوجاتهم وبناتهم، فلم يجد الرسول مفرًا إلا انتداب جماعة من المسلمين، على رأسهم محمد بن سلمة الأوسي، فاحتالوا على كعب، وأنزلوه من حصنه، وقتلوه، في عمل عسكري ناجح، فقد كان كعب شديد الخطر بشعره وشخصه على المسلمين، فهو إن كان يهوديا، إلا أنه كان مسموع الكلمة من العرب، لأنه من أصول عربية تعود إلى قبيلة طيئ، وله صلات قوية وتأثير كبير على بني قريظة، بالإضافة إلى قبائل الطائف ومكة. وبمجرد مقتله، خاف اليهود وارتعبوا من بأس المسلمين، والتزموا بالعهود مع الرسول[19].

[17] المرجع السابق، السفر الأول، ص56.

[18] الموسوعة، ج1، ص126، 127.

[19] الموسوعة، ج1، ص168، 168.

فما كعب وشعره إلا الوجه القبيح للأدب، عندما يكون بوقا للكفار، محرضا على قتال المسلمين، فلا يصلح تفاوض أو نصح معه، فلن يرتدع عن غيه وفجوره.

ثم نجد ندرة في النصوص والشواهد الشعرية، عندما أوغل المؤلف في تتبع الأحداث السياسية في عهد الخلفاء الراشدين، بدءًا من حادثة السقيفة، وصولا إلى الفتنة الكبرى. وقد أورد بيتًا شعريًا سمعه عمر بن الخطاب وهو يتعسس أحوال الناس ليلا، حيث أنصت لامرأة تنشد:

فوالله لولا الله تُخشى عواقبه لزلزل من هذا السرير جوانبه

فاستفسر عمر (رضي الله عنه) من ابنته حفصة عن الفترة التي لا تطيق فيها المرأة فراق زوجها، فأجابته أربعة أشهر(وفي روايات أخرى ثلاثة أو ستة أشهر)، فأرسل عمر إلى قادة الجيوش والثغور أن يسمحوا للمجاهدين المسلمين بالعودة إلى زوجاتهم وفق هذه الفترة المعلومة، وليحدثوا أهلهم أيضا بأخبار الانتصارات والفتوحات[20].

فكما كان الشعر شاهدا على الأحداث، ووسيلة للسمر والإمتاع، فهو يأتي في الموقف السابق زفرة حارة، تعبر عن أشواق الزوجة، وخشيتها من عقاب الله.

وتدريجيا يندر الاستشهاد بالشعر في الموسوعة، حتى إذا وصلنا إلى حقبة الخلافة العباسية، فإننا نجد بيتين أوردهما المؤلف وهو يقصّ خبر الوالي العباسي داوود بن عيسى، وقد اتسعت ولاية المدينة في عهد لتشمل مكة والطائف واليمن واليمامة، وصار واليها مسؤولا عن قوافل الحج، وقد عُرِف داوود بالشدة والحزم، ضد بقايا الأمويين، وغيرهم من العائلات والرؤوس ذات المطامح السياسية، ولذا نجده يترنم بهذين البيتين وهو يخطب في أهل المدينة، عندما قفل عائدا من الحج:

حتى يبيد قبيـــلة فقبيـــلة ويعضّ كل مثقف بالـــهام

ويقمن ربات الخدور حواسرًا يمسحن عرض ذوائب الأيتام[21]

والدلالة تحمل تهديدا، وهي تأتي ضمن الصراع بين العباسيين والأمويين، والذي جرت فيه دماء كثيرة، وهنا صار الشعر تهديدا، كي يترنم به الناس فلا يثورون.

[20] الموسوعة، ج1، ص273.

[21] الموسوعة، ج2، ص4، 5.

بل إن الشعر حضر في الرسائل المتبادلة بين الخليفة العباسي أبو العباس السفاح، وبين عبد الله بن الحسن، حيث بلغ الأول أن ابني الثاني محمد وإبراهيم يعدّان للثورة على بني العباس، فختم السفاح رسالته لعبد الله بهذا البيت:

أريد حياته ويريـــد قتلي عذيرك من خليلك من مرادِ

فردّ عليه عبد الله بن الحسن برسالة لبقة، نافيا فيها هذه التهمة، موردا فيها أبياتا رقيقة وهي:

وكيف يريد ذاك وأنت منه بمنزلة النيـــاط من فؤادِ

وكيف يريد ذاك وأنت منـه وزندك حين يقدح من زنادِ

وكيف يريد ذاك وأنت منه وأنت لهاشـــــم رأسٌ وهادِ

فهدأت نفس أبي العباس، ولجأ إلى سياسة حكيمة، مع الهاشميين، ومنع ثوراتهم[22].

وبغض النظر عن سياق الرسالتين، فإن الملمح الأبرز فيهما؛ تلك البلاغة العالية التي نلمسها، ما بين نثر وشعر، وحكمة ورفق، ولباقة وتهذيب، وكيف أن أهل المدينة وخلفاء بني العباس حافظوا على رقي ذائقتهم، وسمو بلاغتهم.

ومع تقدم الزمن، وتتابع الحقب، يتلاشى الشعر من الموسوعة، فقد تغيرت الأزمان، واختلفت الأجيال، واهتم المؤلف بالحدث والخبر في الأزمنة المتأخرة.

الثقافة –في المدينة المنورة–علامات ومعالم:

مثّلت الإشارات الواردة في الموسوعة عن الثقافة، دلالات على نوعية الثقافة في المدينة المنورة، سواء في الجاهلية أم بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكيف نمت وتمددت، وصارت لها معالم راسخة، وعلامات واضحة.

[22] الموسوعة، ج2، ص7، 8.

وقد اعتنى المؤلف بتأصيل هذا البعد، حيث عنّون فصلا بـ"الجانب الثقافي في يثرب" في الجزء الأول، مشيرًا إلى حقبة الجاهلية، الموغلة في القدم الزماني، عندما سكن العماليق يثرب، ودلت آثارهم والكتابات عنهم على تقدم علمي وذوق رفيع، بدا في الزخارف وبقايا الأبنية والتماثيل والنقاش، وإن كان الأمر يحتاج لمزيد من الدراسات والتنقيبات. وبدأت الثقافة المحلية تتكون في يثرب، بعد هجرة القبائل العربية إليها، وإن ظلت ثقافة شفوية، على الرغم من وجود أشخاص يعلمون الكتابة في الأوس والخزرج، وهناك آثار تحمل نصوصا، تحتاج لمزيد من البحوث الأثرية. وفي الثقافة الشفوية، ظهر الشعراء والخطباء والحكماء، ولكن لم يظهر أطباء أو مهندسون أو رياضيون، كما لم نجد تأثيرا من حضارات الفرس أو الروم، نتيجة لعدم اعتياد أهل يثرب على السفر، ومخالطة الأمم الأخرى. ومع مقدم اليهود، واستقرارهم، نشر أحبارهم مرويات من الكتب المقدسة، ولكنها ظلت محدودة، بحكم انغلاق اليهود الاجتماعي، وعدم نشرهم ديانتهم، ولأن مثل هذه المرويات كانت بالعبرية، وهي لغة نصوصهم الدينية، بينما كان اليهود يتعاملون في حياتهم اليومية باللغة العربية مع الأوس والخزرج. ولكن لم ينبغ في اليهود عالم أو طبيب، وربما يعود هذا إلى أن اليهود فروا من مملكة يهوذا، أو من عهد تيتوس الروماني، وهم في حالة شديدة من الضعف والتخلف، وسادت بينهم الفتن والحروب، وانشغلوا بعيشهم دون تنمية علمهم[23].

لقد وفّر انعزال اليهود آطامهم وقراهم الفرصة سانحة لتكوين ثقافة محلية عربية، تمتاح من التقاليد العربية البدوية، بعربيتها الفصيحة الجزلة، مع الحفاظ على نقاء فطرتهم فلم يتلوثوا بفلسفات أو حضارات وافدة من دولتي الفرس أو الروم.

ويؤكد المؤلف أن أبرز معالم الثقافة الشفوية المترسخة لدى أهل يثرب كانت مزيجا من الحكم والأمثال، والخبرات المكتسبة بفعل تجارب الحياة. كذلك ما تناقلوه من أشعار وإبداعات لغوية وأدبية وخطابية، وأخبار الحروب والأنساب، مع الخبرة المتراكمة في أوقات الزراعة والحصاد وعلم النجوم والأنواء، بجانب ذائقتهم العالية للأشعار ومقولات الحكمة، وبلاغة الخطب[24].

[23] الموسوعة، ج1، ص120، 121.

[24] الموسوعة، ج1، ص122، 123.

فالثقافة الشفوية ظاهرة لازمة في المجتمعات البشرية قاطبة، خاصة المجتمعات البدوية المتنقلة، أو في المجتمعات الزراعية المستقرة، حيث تندر الكتابة، وتتعزز الشفاهيات المروية، المتناقلة من الكبار إلى الصغار. إلا أن السمة الواضحة أن أهل يثرب –وإن كانوا وثنيين– ولكنهم كانوا ذوي نفوس سمحة، وفطرة طيبة، وقيم إنسانية رفيعة، وهو ما أهّلهم لاستقبال دعوة الإسلام، ومناصرة الرسول حتى أكمل الدين.

وقد قدم الرسول (صلى الله عليه وسلم) نموذجا رائعا في التربية الروحية والثقافية والعلمية والبلاغية لأصحابه، فكان يجالسهم في المسجد والبساتين، ويزورهم في بيوتهم، حيث كانت المادة المقدمة إليهم هي القرآن الكريم التي تتنزل آياته على النبي، مع الأحاديث الشريفة بكل ما فيها من إرشادات وتوجيهات وبلاغة، كما كان النقاش ثريًا، ما بين مجادلات اليهود، وتساؤلات الصحابة، واستفهامات المهتدين الجدد، لتبدأ مدرسة علمية فريدة، قوامها الإسلام الدين، والقرآن الكتاب، وأحاديث الرسول، والمحاورات المستمرة، وترادفت مع الأحداث المتتابعة من غزوات وتطورات[25]. كما حرص الرسول على بناء مجتمع إسلامي أخوي مترابط، متجاوزا التعصب القبلي، والقيم الجاهلية الاجتماعية المتوارثة، وهو ما أثبته في وثيقة المدينة المنورة، فجعل الانتماء إلى الدين مقدما على الانتماء القبلي، مع الحفاظ على القيم الإيجابية المتوارثة، وحفظ الأنساب، فكانت بعض القبائل تدخل الإسلام إذا أسلم شيخها أو شريف مطاع فيها، ليكون الإسلام قوة روحية وثقافية واجتماعية هائلة[26].

وقد تطورت الحركة العلمية والثقافية في المدينة المنورة، وفقا لتطور طبيعة الحياة فيها، حيث انتشرت الكتاتيب في أنحاء المدينة، زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، نتيجة غياب أرباب الأسر في الجهاد، واحتياج الصبيان إلى التعليم، الأمر الذي شجع عمر على دعم المعلمين ومقرئي القرآن، وبدأ تدارس العلوم الشرعية والتي نمت وترعرت، بعدما أوجب عمر نشر معاهد التعليم في الأمصار، وأجرى الأرزاق على المعلمين، وازدادت مع اتساع الفتوحات، وتدفق الخيرات[27].

[25] الموسوعة، ج1، ص152– 154.
[26]الموسوعة، ج1، ص245، 246.
[27] الموسوعة، ج1، ص274.

أيضا، ازدهرت الحركة العلمية والفقهية والشعرية في المدينة، على الرغم من تأثرها بالأحداث السياسة التي ألمت بالخلافة الأموية، وارتقت أكثر في ولاية أبان بن عثمان بن عفان، الذي كان ظريفا، محبا للعلم والأدب والشعر، فأحبه أهل المدينة، خاصة أنه سعى إلى خدمتهم، ودعّمَ الحركة العلمية والثقافية لهم، فقد كان مقربًا من الأمويين، بجانب كونه من فقهاء التابعين، وأحد المفتيين في المدينة، واستمرت ولايته سبع سنوات (76- 83 هـ)[28]، تاركا ميراثا كبيرا من العلم والمعاملة الطيبة.

والحقيقة التي لا خلاف عليها أن أهل المدينة كانوا على مستوى عال من الفقه والعلم، ولا يتسامحون مع والٍ يكون جاهلا بأحكام الشريعة، بل سرعان ما يتصدون له، ويرسلون الشكاوى ضده، وإن استمر في ولايته عليهم، والشاهد على ذلك موقف أهل المدينة من إبراهيم بن هشام المخزومي، الذي ساسهم مرات باللين، ومرات بالشدة، ولكنهم تحفظوا كثيرا على جهله بأمور الفقه، وادعائه العلم، وقد تولى إمارة الحج، ولم يعرف كيف يجيب سائلا له عن حكم الأضحية أهي واجبة أم لا. وقد ارتفعت أصوات أهل الزبير بن العوام ضده، وهجاه عروة بن الزبير، فغضب إبراهيم، وقبض على يحيي بن عروة، وجلده بالسياط بشدة، حتى مات، مما ثار عليه أهل المدينة، واضطر الخليفة إلى عزله، وتعيين خالد بن عبد الملك مكانه في العام (114 هـ)[29].

وندرك من خلال هذه الحادثة المكانة الكبرى التي كانت عليها عائلات المدينة المنورة، والتي يعود نسبها إلى كبار الصحابة والمجاهدين في الإسلام، وأن أهل المدينة تحلّوا بالعلم والفضائل، فلم يسكتوا عن جهل، ولم يستكينوا خوفا، وفي المقابل، فإن خلفاء بني أمية كانوا يعرفون فضل أهل المدينة، ومكانتهم، فأنصتوا لشكايتهم، ولبّوا مطالبهم.

وفي الخلافة العباسية، استمرت الحركة العلمية، ونمت وازدهرت، وكما يؤكد المؤلف بأن نمو العلم وازدهاره هو قرين الهدوء والاستقرار، فيورد إشارات عديدة حول ذلك، ففي عهد أبي جعفر المنصور، ومع هدوء الصراعات السياسية، فإن الناس انشغلوا بأمور المدينة، وانكبوا على حلقات

[28] الموسوعة، ج1، ص388، 389.

[29] الموسوعة، ج1، ص418، 419.

العلم[30]، وعندما تضعف سلطة الخلافة، وتقتصر على العاصمة والمدن الكبرى، فإن القبائل البدوية وسكان القرى يسارعون إلى اغتنام الفرصة والسعي إلى شن هجمات على القوافل والمدن الغنية، وينشغلون في ذلك عن العلم والتفقه في الدين، والسعي إلى التعلم من علماء المدينة المنورة، وهذا حدث فترة من الوقت في خلافة المأمون، وسرعان ما واجههم بحزم[31].

الأمر الآخر، أن أهل المدينة المتوارثين للعلم والفقه، وقفوا بحزم ضد محاولات بعض الدول المذهبية التي سيطرت على الحجاز، التي عملت على تغيير المذهب السني، فكم كان موقفهم راسخًا، وهم يواجهون دعاة الخلافة الفاطمية بالحجة والبرهان، فلم يؤثروا إلا في بعض البسطاء والجهلة واستمر علماء المدينة في إقامة حلقات العلم، كما تصدى والي المدينة وقتئذ طاهر بن مسلم ضد هذه المحاولات، على الرغم من إعلانه الولاء للدولة الفاطمية[32].ومع تقدم الزمان، حافظ علماؤها على نقاء السنة، ووقفوا بحزم ضد البدع التي يروجها بعض العامة، فنقرأ في القرن الثامن الهجري، كيف أن العلماء المجاورين في المدينة قد تصدوا للجهلاء، الذين تعلقوا بجذعة معلقة في المسجد النبوي، اسمها جزيرة فاطمة، وراحوا يتبركون بها، وتسابق إلى ذلك الرجال والنساء والصبيان والبنات، وقد تقع المرأة من الزحام وتنكشف عورتها، فتصدى العالم الفقيه أحمد بن محمد بن سليم المصري لهذه البدعة ولغيرها، وأقنع الوالي أن يقتلعها فاستجاب له[33].

وهكذا ظلت المدينة المنورة على مر الزمن منارة إشعاع علمي وأدبي وثقافي، محافظة على مكانتها الدينية والروحية بين المسلمين قاطبة، مع حرص جميع الخلفاء والحكام على رعاية المقدسات في

[30] الموسوعة، ج2، ص63.
[31] الموسوعة، ج2، ص99.
[32] الموسوعة، ج2، ص144.
[33] الموسوعة، ج2، ص248.

مكة والمدينة، والإنفاق بسخاء على مدارس العلم، وحلقاته، ورعاية العلماء فيها، وهو ما جعلها مقصدا لطلاب العلم الشرعي[34].

الخاتمة: يمكن أن نصل في ختام هذا البحث إلى جملة نتائج أهمها:

– إن أبرز ما يميز هذه الموسوعة أنها تغطي التطورات السياسية وأبرز الأحداث في تاريخ المدينة المنورة، فهي جهد عظيم، يوفّر للقارئ معرفة كاملة عن تاريخ المدينة على مر العصور.

–إن مثل هذا الجهد يحتاج إلى جهود أخرى، تضطلع بتدوين التاريخ الحضاري للمدينة المنورة، بما يشتمل عليه من عطاء علمي، ومدارس علمية، مع تسجيل مسيرة علمائها، وأبرز مؤلفاتهم وعطائهم العلمي.

– إن الأدب في مختلف أشكاله، ينهض شاهدا على أحداث تاريخ المدينة المنورة، مثلما يكون رافدا في التاريخ الحضاري والثقافي لها، وهو ما يجب الانتباه إليه في التأريخ الحضاري والثقافي.

المصادر والمراجع

– حيدر زكي عبد الكريم، كتابة التاريخ، دار نينوى للنشر والدراسات، دمشق، 2011.

– سعد بن موسى الموسى، تاريخ الحياة العلمية في المدينة المنورة خلال القرن الثاني الهجري، رسالة ماجستير، دار القاسم للنشر والتوزيع، الرياض، 1428هـ.

[34] فصّل المؤلف في الجزء الثالث من الموسوعة الحياة العلمية في المدينة في العصر الحديث، وأبرز معالمها ومدارسها المستحدثة، من معاهد وجامعات، مع أمثلة مفصلة عن الأوقاف وحركة العمران التي تميزت بها.

– د. سيد أحمد علي الناصري، فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه، دار النهضة العربية للنشر، القاهرة، ط1، 1982.

– د. شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1983.

– د. عبد الباسط بدر، موسوعة التاريخ الشامل للمدينة المنورة، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط1، 1414هـ، 1993م.

– محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة، د ت.

– هاري إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: د. محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984.